

المستشرقون والتاريخ الإسلامى

للدكتور على منى الحزبرطلى

أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

كثيرا ما يسألنى طلبتى : من هو المستشرق ؟ فهم يقرأون ويسمعون كثيرا عن الاستشراق والمستشرقين ، ويريدون تعريفا علميا يحدد أبعاد صفات المستشرق وليس هناك تعريف واحد محدد ثابت متعارف عليه . ولذا فانى أقول لهؤلاء الطلبة ردا على تساؤلهم : « المستشرق هو عالم غربى يهتم بالدراسات الشرقية » . فلا بد أن يتوافر فى هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها فى العالم المتخصص المتعمق ، حتى ينتج ويفيد البشرية والحضارة باتناجه العلمى . ولا بد أن يهتم هذا العالم الى الغرب ، ولو كان هذا العالم يابانيا أو أندونيسيا أو هنديا لما استحق أن يوصف بالمستشرق ، لأنه شرقى بحكم مولده وبيئته وحضارته . وقد تكون الدراسات الشرقية التى يقوم بها المستشرق تاريخا أو فلسفة أو آثارا أو اقتصادا ولكنها ترتبط بالشرق . وليس من الضرورى أن يرحل هذا المستشرق الى الشرق ، ليعيش فيه ، أو ليتطبع بطباعه أو حضارته ، فقد يقوم بدراساته فى جامعته الغربية ، أو فى وطنه . وان كان رحيله الى الشرق يجعل دراساته أكثر فائدة وأقرب الى الواقعية والحقيقة . وليس من الضرورى أن يعتنق هذا المستشرق الإسلام أو أحد الأديان السائدة فى الشرق ، كما ليس من الضرورى أيضا أن يتحدث باللغات الشرقية ، وان كان الالمام بها أو اجادتها يعينه كثيرا فى دراساته وأبحاثه .

ثم يعاود طلبتى السؤال مرة أخرى : وما هى الأهداف التى تدفع بهؤلاء المستشرقين الى الدراسات الشرقية ؟ فأقول لهم : انه من العسير أيضا الرد على هذا التساؤل ، فالأهداف متعددة ومتباينة ومتشابكة ، وهى تختلف فى القرون الوسطى عنها فى العصور الحديثة ، وهى تختلف أيضا فى دولة صديقة للشرق وأهله ، عنها فى دولة غربية أخرى ترمى الى استثمار أرجاء من بلاد الشرق . الى جانب الفروق الفردية ، التى ترتبط بأراء المستشرق الشخصية ، واتجاهاته

العلمية ، ومدى حياده أو تعصبه ، سواء أكان هذا التعصب ديني أو عنصري أو سياسى أو حضارى ومدى تفهم المستشرق لحياة الشرق ، وحضارته وفلسنته وأديانه وظروف بيئته ، وهى كلها تختلف تماما عن البيئات الغربية التى يعيش المستشرقون بين ظهرانيها .

ولنترك الحديث عن الاستشراق بصفة عامة ، بجوانبه ودراساته المتعددة ، لنخصص الحديث عن جانب واحد ، هو التاريخ الاسلامى ، فنجد تساؤلا جديدا هو : متى بدأ الاستشراق فى دراسات التاريخ الاسلامى ؟ وهناك آراء كثيرة حول البداية ونقطة الانطلاق . فهناك من يربط بين دراسة التاريخ العربى والاسلامى وبداية الأطماع الاستعمارية الأوروبية فى العالمين العربى والاسلامى فى أواخر القرن الثامن عشر ، حينما ضعفت قبضة الدولة العثمانية ، وبدأت الدول الأوروبية تنظر بعين الطمع فى ممتلكات ذلك « الرجل المريض » قبل أن تعلن وفاته وترث تركه . فقد حرصت الدولة العثمانية فى أول عهد حكمها للبلاد العربية والاسلامية ، على أن تسدل ستارا كثيفا يحجب أنظار الأوروبيين عن هذه البلاد ، حتى لا تمتد إليها أصابع الاستعمار ، وان كان هذا الستار قد نجح فترة طويلة فى أن يحمى البلاد العربية والاسلامية من الأطماع الاستعمارية ، الا أنه منع أى لون من ألوان الاتصال الحضارى ، الذى قد يتيح الفرصة للعلماء الأوروبيين لدراسة تاريخ الشرق وحضارته ، كما جعل العرب والمسلمين بمعزل عن حضارة أوروبا ، وقد كانت هذه القارة تجتاز عصور النهضة بعد تخليها عن طابع العصور الوسطى وحضارتها . وهناك رأى يجعل الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ هى بداية الاستشراق الايجابى الحقيقى ، حينما صحب نابليون بوناپرت معه على ظهر أسطوله عددا كبيرا من العلماء ، الذين تخصصوا فى فروع عديدة من المعارف ، كما صحب مطبعة عربية . وقد بدأ هؤلاء العلماء الفرنسيون نشاطهم منذ اللحظة الأولى التى وطأت أقدامهم فيها مصر ، وأنتجوا إنتاجا حضاريا ضخما ، لا يزال حتى اليوم منبعاً فكريا ، ورغم اخفاق الحملة الفرنسية سياسيا وعسكريا ، الا انها نجحت حضاريا ، رغم قصر مدة بقاء الحملة فى مصر . وتركت الحملة بعد جلائها عن مصر آثارا حضارية عديدة ، كانت أسسا لدراسات كثير من المستشرقين فى العهود التالية . وكانت رغبة كثير من الدول العربية والاسلامية فى التحرر من الحكم العثمانى ، دافعا للعرب وللمسلمين على المطالبة

باقتباس بعض معالم الحضارة الأوروبية التي لا تخالف عقائد العرب أو تقاليدهم. فقد اتصفت فترة الحكم العثماني بركود حضارى أدى الى جمود فكرى ، فقد كان هذا الحكم العثماني نكسة شديدة أصابت الحضارة العربية بعد عهود طويلة من الازدهار الحضارى ، وكانت أوروبا في تلك العهود تعاني من ظلام الجهل والتأخر . ولذا رأى كثير من العرب والمسلمين أن يسيروا في نفس الطريق الحضارى الذى سار الأوروبيون فيه قبلهم حتى بلغوا ما وصلوا اليه من مظاهر حضارية راقية . وقد ظهر مفكرون مسلمون ، مثل جمال الدين الأفغانى ، ينادون بأن اقتباس الحضارة الأوروبية هي الوسيلة المثلى لرقى العالم الاسلامى والخروج به الى عالم النور والحضارة الزاهرة .

هذه هي بعض الآراء عن بداية الاستشراق ، ولكننا نرى أن الاستشراق قد بدأ منذ قرون كثيرة سابقة للقرن الثامن عشر . بل نرى أن الاستشراق قد أرسى قواعده منذ العصور الاسلامية المبكرة . وفي رأينا أن الاستشراق هو « اهتمام بالدراسات الشرقية » ، وقد يأخذ هذا « الاهتمام » صورة الأخذ أو العطاء . والفكرة الشائعة بين الكثيرين أن الاستشراق هو أن يقدم المستشرقون اتناجهم الفكرى لأبناء الشرق ، ولكننا نرى أن ذلك هو جانب واحد من الاستشراق ، ونرى أن اقدم الغربيين على أن ينهلوا من منابع الحضارة الشرقية هو استشراق أيضا، فهم يجعلون الدراسات الشرقية موضع دراساتهم واهتماماتهم والحضارة في جوهرها وحقيقتها عالمية ، فهي ملك للأسرة البشرية الكبيرة جمعا ، والحضارة أيضا أخذ وعطاء ، واقتباس بعض معالم الحضارات العالمية هو في الحقيقة تجديد لدماء الحضارة المحلية ، ودافعا لها للتطور والتقدم .

وعلى هذا الأساس ، فالتنا نرى - دون مبالغة - أن الاستشراق قد بدأ في أوروبا نفسها ، في العصور الوسطى الاسلامية ، حينما كان العرب المسلمون يحكمون أرجاء كثيرة في شبه جزيرة أيبيريا (بلاد الأندلس) وفي فرنسا وايطاليا وصقلية وجزر البحر المتوسط. فقد كانت أوروبا قبل الفتوحات العربية والاسلامية تسبح في دياجير الظلام ، وقد بددت الحضارة العربية الاسلامية هذه الدياجير الخالكة ، وأصبح العرب أساتذة للأوروبيين . فقد أصبح العرب فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر الميلاديين خملة مشاعل الثقافة والحضارة في ربوع العالم أجمع ، وكانت الحضارة العربية هي أساس النهضة في أوروبا .

وقد كتبت اسبانيا العربية الاسلامية صفحة من أروع صفحات تاريخ الحضارة في القارة الأوروبية في العصور الوسطى . لقد أقبل الأوروبيون ينهلون من منابع الحضارة العربية ، وقدم طلاب العلم من كل أرجاء أوروبا على بلاد الأندلس يدرسون في جامعاتها ومعاهدها . أفلا يمكن أن نسمى ذلك استشراقا ؟ فأننا نرى أن الأوروبيين حينما أقدموا على الاقتباس من حضارة الشرق ، العربية والاسلامية ، وحينما أصبحت هذه الحضارة الشرقية هي أساس حضارة القارة الأوروبية ، أصبح الأوروبيون حينئذ مستشرقين . فقد وجد الأوروبيون في حضارة العرب ما يناسب احتياجاتهم ويسد الفراغ الموجود ، وكانت الحضارة العربية لها من المرونة والواقعية ما يجعلها تناسب الشعوب الأوروبية على اختلاف بلادها وأجناسها وثقافتها .

وهذا البحث يضيق عن تعديد جوانب استشراق الأوروبيين ، أى اهتمامهم بالحضارة الشرقية ، واقدامهم على التأثير بها والاقتباس منها^(١) . ونذكر الآن على سبيل المثال - وليس على سبيل الحصر - أن ابن رشد كان الحجة البالغة للفلسفة في جامعات أوروبا منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، ولما حاول لويس الحادى عشر تنظيم أمور التعليم في سنة ١٤٧٣ م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربى^(٢) . ويرى المفكر (أندريس)^(٣) أن قيام التأليف العلمى في أوروبا في الطب والرياضيات والعلوم الطبيعية مرجعه الى العرب ، ويرى أن روجر بيكون وفتيلون قد استفادا من بصريات الحسن بن الهيثم ، وأن ليوناردو اليزى أخذ عن العرب الجبر ، وأخذ أرنالدو فيلانوفيا الطب والكيمياء ، كما نهل أعلام الطب الأوروبى من كتب العرب وخاصة الزهراوى . كما استوحى (كلير) كشفه لأفلاك الكواكب الدائرية من كتاب البطروجى . لقد حفظ لنا معجم لاروس برنامج الدراسة في كلية العلوم في لندن ، وكان هذا البرنامج يشمل الفلسفة الرشدية ، وعلم القروسية عند العرب ، وفن الصيدلة المقتبس من مصر ، والجبر وهو من العلوم العربية ، وفنون الموسيقى وتطبيقات مصطلحاتها الشرقية على الموسيقى الافرنجية ، والكيمياء العضوية وهى من وضع العرب .

(١) انظر كتابنا (العرب في أوروبا) وكتابنا (العرب والحضارة) تجد كثيرا من التفاصيل .

(٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب (ترجمة عادل زعيتو) ص ٥٦٩

(٣) الفكر الأندلسى ص ٢٢٢

وقد أصبحت هذه الكلية منبعاً لتخريج الخبراء والأساتذة في أوروبا كلها .
أفلا يمكن أن نسمى ذلك جميعه استشراقاً ؟

لم يكن استيلاء النورمنديين على جزيرة صقلية ، وقضائهم على النفوذ
السياسي للعرب ، نهاية لآثار العروبة في الجزيرة . فقد اعتمد الأمراء النورمنديون
على العناصر العربية في السياسة والاقتصاد ، فقد كانوا على جانب كبير من
الحضارة والرقى والخبرة . وكان هؤلاء الأمراء يجيدون اللغة العربية ، التي
خلت احدى اللغات الرسمية في الجزيرة ، التي تكتب بها البراءات ، وتنقش على
النقود ، وقد أحاط الأمير روجر الأول نفسه بأهل المشرق من الفلاسفة والمنجمين
والأطباء ، وكان بلاطه أشبه ببلاط خلفاء العرب منه ببلاط أمراء الغرب ، وظلت
صقلية أكثر من قرن مملكة مسيحية يتولى وظائفها الكبرى عرب مسلمون^(١) .
وكان روجر الثاني (١١٣٠ — ١١٥٤) يرتدى الملابس العربية ، ويطرز رداءه
بحروف عربية ، كما احتضن الادريسي ، أعظم الجغرافيين ورسامي الخرائط في
العصور الوسطى . أما الامبراطور فردريك الثاني فكان شرقياً في عاداته الشخصية
وحياته الرسمية ، حتى أنه كان يحتفظ بعدد كبير من السراري . وكان في بلاطه
كثير من الفلاسفة العرب من الشام وبنغداد ، بل وكثير من راقصات الشرق .
أى أن هؤلاء الأمراء قد أصبحوا في حياتهم واتجاهاتهم وثقافتهم مستشرقين ،
اذ لا يمكن أن نصفهم بأنهم شرقيون . وهذا الرأي الذى ذكرناه يجب أن يكون
موضع الاعتبار ، فلا يجوز لنا أن نعتبر المستشرقين هم فقط الذين درسوا تاريخنا
وحضارتنا وقدموا لنا خلاصة دراساتهم وأبحاثهم لنستفيد منها . ولكن يجب
أن نضيف الى هذه الفئة ، تلك الفئة السابقة التى استشرقت حينما نهلت من
فيض منابع الحضارة العربية ، التى لا تنضب ، وهؤلاء المستشرقين وان كانوا
قد أعطوا الشرق بالأمس القريب ، فقد أخذوا عن الشرق فى الأمس البعيد ،
والحياة والحضارة — كما ذكرنا — أخذ وعطاء .

كان هذا لونا مبكراً من ألوان الاستشراق . وهناك لون آخر ، كانت
دوافعه واتجاهاته تختلف كثيراً عن دوافع واتجاهات اللون الأول ، وان كان
اللوان قد شهدتهما العصور الوسطى . فقد شهدت هذه العصور صوراً كثيرة
للتعصب الدينى ، مما كان من عوامل الاستشراق . فقد أقدم بعض الأوروبيين

(١) دكتور فيليب حتى : تاريخ العرب (ترجمة مبروك نافع) ص ٧٨٧

على دراسة العقيدة الاسلامية ، ونظمها ، وحضارتها ، لا للاستفادة منها ، ولكن للكيـد لها بدافع من التعصب الدينى الذى كان من سمات ذلك العصر . ومن أبرز المؤرخين الذين تناولوا هذا الجانب من الاستشراق المؤرخ الهندى المسلم (صلاح الدين خودا بخش) فى كتابه الذى قمنا بترجمته بعنوان (الحضارة الاسلامية) . فيرى (خودا بخش)^(١) أن سبب هذا التعصب هو سيطرة الكنيسة على أهالى العصور الوسطى المظلمة ، فى وقت أدى انتشار الاسلام وقوته الى شعور أوروبا بالخطر ، وظن البعض أن الاسلام قد أصبح خطرا على المسيحية ، وكان هذا الشعور بالخطر هو الشرارة التى أشعلت النيران ، وبدأت الكنيسة نشاطها المعادى للاسلام . وكانت الكنيسة فى بداية الأمر ، تظن أن انتصار الاسلام ماهو الا سحابة عن قريب تنقشع ، ولكنها سرعان ما أدركت أن انتصاره كان كاملا مطلقا . وعبور السنوات ، ازداد شعور المسيحيين بزيادة خطر المسلمين على الدول المسيحية ، فبدأوا يبحثون عن وسيلة تستطيع أن تساعدهم لوقف هذا الزحف المستمر للاسلام .

وأصبح الاستشراق هو وسيلة الأوروبيين لمواجهة هذا الخطر الذى اعتبروه مهددا لهم . وكان هذا الاستشراق من أجل الكيد للاسلام . فقد نهضت الكنيسة لتواجه تهديد الاسلام للمسيحية ، واذا أدركنا مدى سيطرة الكنيسة ونفوذها على مسيحي العصور الوسطى ، وتأثيرها على أدب هذه العصور ، فاننا لن ندهش اذا لمسنا ما نال الاسلام طوال العصور الوسطى من هجوم وقذح ، وذلك نتيجة منطقية للظروف السائدة فى تلك العصور^(٢) .

وتنتيجة هذه السياسة ، قام بعض الأوروبيين المستشرقين ، بترجمة كثير من الكتب العربية والاسلامية ، كما قاموا بترجمة معانى القرآن الكريم . وكانت هذه الترجمات ، التى لم تقم على أساس علمى نزيه ، تحفل بصور مشوهة لتاريخ وحضارة العرب والمسلمين . ومن أبرز هؤلاء المستشرقين المتعصبين يتر المعروف باسم (Peter the Venerable) ، فقد حمل لواء حملة نشيطة ضد الاسلام ولام المسيحيين على مهادنة الاسلام ، ووضع خطة لمحاربته ، ورأى أن تكون نقطة بداية هذه الحرب هى القرآن ، ولذا تمت ترجمة القرآن الى اللاتينية .

(١) الحضارة الاسلامية (طبعة الحلبى سنة ١٩٦٠) ص ٢٧

(٢) المصدر السابق ص ٣٨

وقام بالترجمة رجل انجليزي يدعى (روبرت) ، رحل الى بلاد اسيوية مختلفة حيث استشرق وتعلم اللغة العربية . ثم قام (روبرت) وعالم آخر يدعى (هرمان) بتكليف من (بيتر) ، بترجمة عدة كتب عربية الى اللغة اللاتينية . وكانت هذه الترجمات أساسا لكتب ألفها (بيتر) وبدأ بها عهدا جديدا للصراع الديني الموجه ضد الاسلام ، وكانت مؤلفاته هي المنبع الذي استقى منه كتاب العصور الوسطى في حملاتهم ضد الاسلام ، والرسول ، والحضارة العربية الاسلامية .

وانصافا للحق ، نقول أنه ظهرت حركة مضادة أخرى ، تواجه حملات التعصب الديني التي أشرنا اليها . فقد برز من بين الأوروبيين مستشرقون أبدوا صراحة سخطهم على هذه الحملات الهدامة ، وأنصفوا الاسلام والمسلمين ونذكر منهم على سبيل المثال (ثيتمار Theitmar) الذي امتدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأشاد برحمته وانكاره لذاته وعطفه على الفقراء والضعفاء . كما برأ (أوتو) الاسلام مما اتهمه به الكتاب المسيحيون وأكد في عزم أن الاسلام دين التوحيد وأنه يعترف بالمسيحية وسائر الرسل . أما النواعظ (نيكلدوس) الذي عاش في أواخر القرن ١٣ وفي مطلع القرن ١٤ فقد أمضى سبع سنوات بين المسلمين ودرس فيها القرآن عن قرب ، وأشاد بما حث عليه الاسلام من فضائل ، بل طلب من اخوانه في المسيحية أن يتخذوا من الاسلام وصفات المسلمين مثلا عليا لهم ، وأبدى اعجابه بدراسة القرآن في مدارس بغداد ، وذكر أنه عاش ثلاثة أشهر بين سائقي الابل في الصحراء الذين لم ينسوا في أوقات الشدة والضيق أن يؤدوا فرائض الصلاة ، وأبدى اعجابه بالوضوء الذي يسبق الصلاة ، كما أثنى على نظام الزكاة ، وأشاد بكرم العرب وحسن ضيافتهم ، وغير ذلك من محامد العرب^(١) .

وإذا تركنا الحديث عن بداية الاستشراق ، نصل الى أهداف الاستشراق وغايات المستشرقين من استشراقهم . ويمكننا أن نذكر أنه هناك ثلاثة أهداف رئيسية يتفرع منها أهداف ثانوية . وأول هذه الأهداف الرئيسية الثلاثة ، هو الهدف الديني الذي أشرنا اليه آنفا ، حينما تحدثنا عن هؤلاء الأوروبيين الذين استشرقوا للاساءة الى التاريخ العربي والحضارة الاسلامية ، وقد شهدنا كثيرا منهم طوال العصور الوسطى . أما الهدف الثاني فهو البحث والدراسة ،

(١) خودابخش : الحضارة الاسلامية (من ترجمتنا) ص ٥٩ - ٦١

المنزهين عن جميع الأغراض ، سواء سياسية أو دينية ، فقد رأت فئة من المستشرقين أن الدراسات الشرقية عامة ، والتاريخ الاسلامى خاصة ، منبعا فياضا ، وأرضا خصبة ، وميدانا فيسحا لدراساتهم وأبحاثهم . وخاصة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين حينما كان العرب والمسلمون لا يزالون فى أول طريقهم الى النهضة واليقظة ، فرأى هؤلاء المستشرقين أن يسدوا الفراغ القائم .

أما الهدف الثالث فهو سياسى ، وقد اتخذ صورةا مختلفة . أما الصورة الأولى ، فهي تخدم السياسة الاستعمارية التى انتهجتها بعض الدول الأوروبية فى الشرق العربى والاسلامى . فقد قام غزو حضارى وفكرى الى جانب الغزو العسكرى والسياسى ، وأصبح الاستتراق وسيلة من وسائل الاستعمار فى العصر الحديث . وكانت رسالة العلماء الفرنسين الذين صحبوا بونايرت ظاهرها الاهتمام بحضارة الشرق وتراثه العلمى ، وباطنها ارساء قواعد النفوذ الفرنسى فى الشرق العربى . ولم يكن المنشور العربى الذى وجهه نابليون الى الشعب المصرى ، أو استعمال اللغة العربية فى الدواوين الحكومية ، أو الاهتمام بالأزهر وعلمائه ، الا وسيلة من وسائل تدعيم الاحتلال الفرنسى لمصر ، وخدعة للشعب العربى فى مصر والشام ، وقد فطن المصريون الى هذه الحقيقة فكانت ثوراتهم ضد الفرنسين .

ومن هذه الصور ، رغبة هؤلاء المستشرقين فى بهر أنظار أهالى الشرق بمدى تفوق حضارة الغرب ، واثبات حاجة الشرقيين الى جهود الغربيين ، حتى يصبح الشرق دائما مدينا من الناحية الفكرية والحضارية للعالم الغربى ، مما يمهّد لنفوذ سياسى أوروبى فى الشرق ، يتفاوت فى اتساعه ونطاقه . ومن هذه الصور أيضا محاولة ربط الشرق ببعض الدول الأوروبية برباطات فكرية ، حتى تدور كل دولة شرقية فى فلك دولة غربية ، ولذا تنافست دول أوروبا حول تخصيص عدد كبير من علمائها ليصبحوا مستشرقين متخصصين فى الدراسات الشرقية ، وخاصة العربية والاسلامية . وأصبحت أبحاث المستشرقين فى القرن التاسع عشر تمثل فى الحقيقة الصراع الدائر بين الدول الأوروبية حول مناطق النفوذ السياسى والاقتصادى فى الشرق . وكما كانت الدول الأوروبية تمنح بعض الشرقيين منحا دراسية للدراسة فى الجامعات الغربية ، أصبحت أبحاث المستشرقين هى الوسيلة التى يصل بها الفكر الأوروبى الى الأوطان الشرقية ، أى أنه كان الى جانب

استيراد الشباب الشرقى الى العالم الأوروبى ، كان هناك تصدير كتب المستشرقين الى أرجاء الشرق ، كتتمة للهدف السياسى الذى ترمى اليه دول أوروبا . وهى كتب موضوعاتها عربية واسلامية ، ولكن فى أسلوب وثوب أوروبيين ، الى جانب الاهتمام بالاخراج ونوع الورق والطباعة الفاخرة ، مما أتاح الفرصة للشرقيين ليقارنوا بين هذه المطبوعات الأوروبية الأنيقة ، والكتب العربية القديمة الصغراء ، التى تهج منها عتيقا ، فى التيوب والدراسة والعرض . كما تمكن الشرقيون من شراء أبحاث المستشرقين بأثمان زهيدة ، كما أمكنهم الاطلاع عليها بالمجان فى المكتبات العامة التى أنشأتها هيئات أجنبية ، علمية أو سياسية ، فى بلدان الشرق العربى .

وهناك فئة من المستشرقين فريدة فى نوعها وتتميز عن الفئات السابقة ، وهى فئة المستشرقين الهواة ، الذين يهون الاستشراق ويتخذونه مهنة كسائر المهن الحرة . يمارسونها فى معاهد الغرب ومكباته ومطابمه ودور نشره ومجلاته ، وبعضهم من ذوى اليسار ، فانصرفوا الى التحقيق والترجمة والتصنيف فى تراثنا الذى أمسى من تاريخ العلوم والآداب والفنون ، لا مطمع لدولهم فيهم أو اقبال مواطنيهم عليهم ، فلا ثراء لهذه المهنة ولا أمل لصاحبها فى ثراء (١) .

وهكذا عرفنا الاستشراق ، وتحدثنا عن تاريخه وأهدافه . ولنا أن تساءل : الى أى مدى بلغ الاستشراق فى النصف الثانى من القرن العشرين ؟ وأستطيع أن أجيب بأن الاستشراق لا يزال قائما ، ولكنه تضائل حتى أصبح فى دائرة محدودة . فقد قل عدد كتب وأبحاث المستشرقين فى الدراسات العربية والاسلامية ، وخاصة فى التاريخ الاسلامى . ويرجع ذلك الى النهضة الفكرية التى شهدها العالم العربى فى مطلع القرن العشرين وأنت ثمارها فى النصف الثانى من هذا القرن ، فقد ظهر من بين العرب والمسلمين علماء أفذاذ بزوا المستشرقين فى دراساتهم المنهجية وأبحاثهم الجامعية ، وأغنونا عن تلك البضاعة الأجنبية المستوردة ، وقد سد علماءنا العرب الفراغات التى كان يملؤها المستشرقون بدراساتهم ، حتى أصبحنا فى غنى عن جهود هؤلاء المستشرقين . وقد أدرك المستشرقون هذه الحقيقة ، فاتجهوا بأبحاثهم الى تاريخ وتراث الدول الافريقية

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٤٩ (دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٥) .

والأسيوية التي استقلت حديثا والتي لا تزال تقطع أول شوط في طريق الحضارة والنهضة الفكرية ، والتي لم يظهر من بين أبنائها علماء يكفون تغطية ميادين الدراسات المحلية ، مما يجعل هذه الدول النامية في حاجة ماسة الى جهود المستشرقين .

ولكن دول الغرب لم تتوقف عن اهتماماتها بتاريخنا وحضارتنا ، فالجامعات الأوروبية والأمريكية تشيء أقساما ومعهدا للدراسات العربية والاسلامية ، كما تشيء كراسى في مجالس كلياتها لهذه الدراسات ، وتقدم المنح الدراسية للطلبة العرب والمسلمين ، وتساهم في الكشف عن الآثار التاريخية في العالم العربي ، وتزخر المتاحف والمكتبات الأوروبية والأمريكية بالآلاف من الكتب العربية الى جانب الكتب الأفرنجية التي تتناول تاريخ العرب وحضارتهم ، كما تصدر بعض الدول الأوروبية عديدا من المجلات والنشرات العربية ، تجمع بين الدراسات العلمية والدعاية السياسية .

ونتساءل أيضا : هل اتصف المستشرقون جميعا بالحياد التاريخي ؟ وهل أنصفوا تاريخنا العربي والاسلامى ؟ وللإجابة على هذا التساؤل يمكننا أن نقسم المستشرقين الى ثلاث فئات متميزة ، تتفاوت بين الانصاف والاجحاف .

أولا : فئة من المستشرقين أنصفوا تاريخ الاسلام والعروبة ، وقدموا لنا دراسات تتميز بالعمق والتفهم . وقد بذل هؤلاء المستشرقين جهودا كثيرة في تعلم اللغة العربية ، والاطلاع على تراثنا العربي ، وفلسفة هذا التراث ، واستخدموا المنهج العلمى الغربى في دراستهم للتاريخ الاسلامى . ويتميز هؤلاء المستشرقين بالتخصص ، فقد اختلف كل واحد منهم في فرع من فروع الدراسات العربية والاسلامية ، وتعمق فيه ، وقدم لنا اتاجا قيما خصبا .

وفي هذه الفئة يقول المرحوم الدكتور زكى محمد حسن : الملاحظ بوجه عام أن ما كتبه المستشرقون من الدراسات في بعض عصور التاريخ الاسلامى أو مسأله الجزئية أعمق من كتبهم الشاملة . واذا كان للمراجع العربية والفارسية القديمة المقام الأول والأساسى في دراسة التاريخ الاسلامى ، فمن الانصاف أن نعترف بأننا لم نحسن الافادة من تلك المراجع الأصلية حتى اتصلنا بالغرب ، واستطاع الرعيل الأول من المؤرخين المسلمين المحدثين أن يأخذوا من المستشرقين كثيرا من أساليب البحث العلمى الدقيق .

وأشاد الدكتور صالح أحمد العلى^(١) بجهود بعض المستشرقين ، فقال :
إبان القرن التاسع عشر ، ظهر عدد من الباحثين في مختلف الأقطار الأوروبية ،
امتاز بعضهم بدقة البحث واتقان الطريقة العلمية وتطبيقها على الدراسات العربية ،
وبشمول النظر واتساعه والتطرق الى جوانب متعددة من الحضارة الاسلامية ،
وقد قاموا بنشر عدد كبير من كتب التاريخ العربية ، وكتب أخرى تتناول جوانب
كثيرة من الحضارة العربية ، نشرا علميا دقيقا ، كما اهتموا بجمع المواد الأولية ،
والوثائق الأصلية لدراسة التاريخ ، من نقود وأوراق بردى ، فضلا عن الحفريات
التي قاموا بها في عدد كبير من مراكز الحضارة الاسلامية ، يضاف الى ذلك أن
المستشرقين بحكم نشوئهم في أوروبا حيث تقدمت دراسة التاريخ بأساليبها
وآفاقها ، كانت لهم نظرة أوسع ، فاهتموا بجوانب متعددة من التاريخ الاسلامي ،
وأظهر بعضهم عمقا في التحليل واصابة في التعليل ، ونضجا في الأحكام .

ان جهود المستشرقين المؤرخين في نقل كتب التاريخ العربي الاسلامي
أو تحقيقها ونشرها نشرا علميا مع الفهارس الدقيقة ، مما لا ينكره الا جاحد .
وهذه الكتب التي حققوها ونشروها تدل على جهد عظيم ، وصبر على العمل ،
ودقة في الفهرسة^(٢) .

تحدث الأستاذ نجيب العقيقى^(٣) عن هذه الفئة من المستشرقين الذين أنصفوا
الاسلام ، فقال عنها : وفئة أنصفت الاسلام ، وان لم تدن به ، قولا وعملا وكتابة
فلم يؤخذ عليها هفوة على كل ما دبحته فيه ، ومنها ما ذهب به اخلاصه الى
اعتناقه من أمثال : بوركهارت ، وكرنكوف ، وزونستين ، وشنيستر ، ودينه ،
وفلورى ، وميشو ، ومارمادروك ، وفيلبي ، وليوبولد فايس ، وجرمانوس ،
وغيرهم .

ثانيا : فئة تعمدت الاساءة الى تاريخنا الاسلامي وحضارتنا العربية . ولكنها
في نفس الوقت قدمت لنا دراسات مستفيضة دسمة . وكانت الاساءات التي
تعمدوها مستترة مخفية ، قد تكون سطورا قليلة وسط صفحات عديدة ،

(١) في مقدمة كتاب (علم التاريخ عند المسلمين) الذي ترجمه عن (فرانز
روزنثال) ، ص هـ (طبعة فرانكلين سنة ١٩٦٣) .

(٢) محمد عبد الفنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢١٠ (مؤسسة
المطبوعات الحديثة سنة ١٩٦١) .

(٣) المستشرقون ج ٣ ص ١١٦١

ولا يستطيع الكشف عنها سوى قارئ فطن لبيب أو قارئ متخصص ، وأستطيع أن أشبه هؤلاء المستشرقين بمن « يدس السم في العسل » ، فهم يقدمون لنا أبحاثا حلوة ممتعة ، تحفل بقطرات من سم زعاف ، مما يشوه الأفكار ويبلبل العقول ، وقد يززع الايمان عند بعض الضعفاء أو عند أنصاف المتعلمين .

وفي مقدمة هذه الفئة من المستشرقين الأب (لامانس) الذي وضع عديدا من الكتب باللغة الفرنسية ، تتميز غالبا بالعمق والاجادة ، وهو يتبع فيها المنهج العلمى التاريخى ، ويتقن التحليل والاستنتاج والتعليق ، ويفلسف التاريخ الاسلامى . ولكن فى ثنايا كتبه سهام مسمومة يوجهها الى العقيدة الاسلامية ، والى الرسول عليه الصلاة والسلام ، والى تاريخ العرب وحضارتهم وخلفائهم وزعمائهم .

ومن هؤلاء المستشرقين أيضا (ديلاسى أوليرى) الذى يصفه الدكتور تمام حسان^(١) بأنه « من بين غلاة المستشرقين الذين يتلمسون فى ثقافة العرب ما يرجون أن يردوه لأدنى شبه الى ثقافة الاغريق أو الرومان ، فالفقه الاسلامى فى رأيه آخذ عن القانون الرومانى ، لأن العرب وجدوا فى الأقاليم الرومانية المفتوحة أوضاعا فقهية أقروها ، والفلسفة الاسلامية فى نظره طور من أطوار الفلسفة الهيلينية ، لأن العرب بحثوا المشاكل الفلسفية التى بحثها الفلاسفة الهلينيون ، والتصوف الاسلامى ذو روافد من الأفلاطونية الحديثة لأنه اتفق معها فى بعض الآراء ، بل ان العقيدة الاسلامية نفسها تشتمل على عناصر هيلينية ، لأنها ارتضت بعض ما ارتضته المسيحية أو الفلسفة الهلينية » .

ومن الطريف أن أحد المستشرقين يعترف باحتراف بعضهم الاساءة الى الاسلام ، ويحاول أن ينفى الاتهام عن الباقين ، فيقول (ستورى) فى هذا الصدد : « انكم فى البلاد العربية تعتقدون أن المستشرقين متعصبون على الاسلام ، وما أرى هذا الاعتقاد صحيحا دون قيد . نعم ، ان هناك فريقا تعصب بحكم صنعته التى يرتزق منها ، ولكن هذا الفريق معروف عندنا كما هو معروف عندكم ، وليس من الانصاف أن يشمل الحكم جميع الباقين »^(٢) .

(١) فى مقدمة ترجمته العربية لكتاب (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ) ص ٨ (طبعة وزارة الثقافة سنة ١٩٦١) .

(٢) دكتور اسحق موسى الحسينى : علماء المشرقيات فى انجلترا ص ١٤ (القدس . ١٩٤٠) .

وان كانت العصور الوسطى قد شهدت العديد من الكتب التي ألفها مستشرقون متعصبون ، كان كل سطر في صفحاتها قدحا في الاسلام وتاريخ المسلمين ، فقد اختفى مثل هذا النوع من الكتب التي تحوى هجوما سافرا مركزا ، فلجأ المستشرقون المجحفون المحدثون الى طريق الالتواء والتأويل ، واستتروا وراء حرية الفكر ، واستخدموا ألفاظا معتدلة للتعبير عن اتهامات ظالمة واساءات بالغة .

ثالثا : فئة أساءت الى تاريخنا الاسلامى ووقعت فى الخطأ والمحذور ، ولكن بدون قصد أو نتيجة عدم المام تام باللغة العربية ، أو جهل بحقيقة الاسلام ، أو عدم تفهم للبيئة العربية والتقاليد الاسلامية . وان كنا ندين هذه الفئة أيضا ، الا أن حكما عليهم يكون أخف وطأة من حكما على الفئة الثانية من المستشرقين التي أتت الاساءة الى التاريخ الاسلامى حينما أمسكت بأقلامها لدراسته .

ويجد أحد الكتاب^(١) لهذه الفئة بعض العذر فيقول : وهناك بعض مآخذ تعود الى عدم اتقانهم لقراءة النص ، تبعا لعدم اتقانهم اللسان العربى ، وذلك فى حالات قليلة ومستدركة ، ولكنها لا تنقص بحال من قيمة عملهم الجليل فى هذا الميدان .

كما يدافع المستشرق (ستورى) أيضا عن هذه الفئة من المستشرقين الذين أخطأوا بدون قصد ، فيقول : ان الذين خدموا العربية كثيرون ، وقد حاولوا أن يكونوا منصفين فى أبحاثهم بقدر ما يمكن للانسان أن يكون منصفا ، وان أخطأ باحث من غير قصد فليس السبيل الى تقويمه أن يجرح ويقذف ، ثم انا نبحت لغات بعيدة عنا ، ونخوض فى موضوعات فى غاية الدقة ، مستعينين بالأساليب الحديثة ، وكما أنه يشفع للطبيب الجراح — ان أخفق فى عملية جراحية — حسن نيته ، كذلك يجب أن يشفع للباحث طيب طويته وحرصه على الوصول الى النتائج دون تعصب^(٢) .

ولنتقل الآن الى جانب آخر من حديثنا عن المستشرقين والتاريخ الاسلامى ، فنحاول تقييم جهود هؤلاء المستشرقين فى مجالات الدراسات التاريخية الاسلامية.

(١) محمد عبد الفنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢١٠

(٢) الحسينى : علماء المشرقيات فى انجلترا ص ١٤

ولاشك أن أبرز جهودهم هو اخراج تراثنا العربي والاسلامى الى النور ، وقيام المستشرقون بتحقيق ونشر مصادر التاريخ الاسلامى ودراسات المؤرخين العرب الأقدمين . كما قام المستشرقين بدراسة عميقة واعية لهذه المصادر الأولية ، واتهجوا فيها غالباً مبدأ الحياد التاريخى . فنحن نعلم ما كان بين المفكرين المسلمين من نزاع وصراع وعصية ، نتيجة انقسام المسلمين الأولين الى فرق ومذاهب متعددة ، وقد انعكست هذه الانقسامات على كثير من مصادرنا التاريخية القديمة ، يظهر فيها الصراع الذى كان دائراً بين الهاشميين والأمويين ، أو بين السنيين والشيعة ، أو بين الشيعة والخوارج الى جانب تيارات الشعبوية والزندقة التى أثرت فى الفكر العربى فى العصر العباسى الأول .

ولكن المستشرقين طبقوا منهجهم العلمى على تراثنا ، وقد خلت نفوسهم وقلوبهم وعقولهم ، قدر استطاعتهم ، من آثار تلك العصبية والمنازعات والأهواء^(١) . مما جعل دراساتهم محايدة بعيدة عن تلك الصراعات الفكرية والمذهبية القديمة . وقام هؤلاء المستشرقين بدراسة التراث الانسانى ، وأجادوا اللغات السامية والآرية ، وشملت دراساتهم الأديان والفنون والآداب والعلوم ، وحققوا أصول هذا التراث وتأثره وتفاعله وتطوره وأثره . ففى دراساتهم لتاريخ الفلسفة رجعوا الى الأصول اليونانية والسرانية والعربية والعبرية واللاتينية وسائر اللغات الغربية . كما درسوا علم الكلام لدى جميع الأمم على مر العصور ، وقارنوا بين الفقه الاسلامى والقوانين الدينية والمدنية العالمية . ورجعوا فى دراساتهم للحروب الصليبية الى المؤرخين العرب والأرمن واليونان واللاتين . وتحدثوا عن أثر الحضارة الاسلامية فى الفكر الأوروبى ، ومساهمة الثقافة العربية فى التراث العالمى^(٢) .

وربما تكون دراسات المستشرقين حول الفرق الاسلامية هى خير ما يرجع الباحث اليه ، فقد وقفوا موقفاً حيادياً من صراع أصحاب هذه الفرق . وقد أشاد الدكتور تمام حسان بجهود المستشرق (ديلاسى أوليرى) فى دراسته للفرق الاسلامية ، فقال : ولكون (أوليرى) مستشرقاً ينتمى الى بيئة ، لا هى بالاسلامية ولا العربية ، يثير فى نفوسنا دواعى الانتباه حين نقرأ له رأيه فى الفرق

(١) نجيب العقيقى : المستشرقون ج ٣ ص ١١٤٦

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١١٤٣

الاسلامية المختلفة . بل انه يثير انتباهنا حين يتكلم عن اعلام الفكر العربى بروح ليس لها موقف تقليدى من هؤلاء الاعلام ، فهو يعرض هذه الفرق وهؤلاء الاعلام من زاوية لا تتفق كثيرا لاتباع هذه الفرق والمعجبين بهؤلاء الاعلام ، ولأن المسلم منا ينظر بعين العطف الى أبناء مذهبه فى الدين ، وبعين الاشفاق الى أبناء المذاهب الأخرى ، ومن ثم يصعب عليه عند ارادة البحث العلمى الذى لا يعرف العطف والاشفاق ، أن يتخذ لنفسه موقفا خلوا من أى منهما^(١) .

ومما يميز جهود المستشرقين تخصص كل منهم فى فرع معين من فروع التاريخ الاسلامى ، مما يزيد دراساتهم عمقا وأهمية وفائدة . ومن الذين تخصصوا فى تاريخ العرب قبل الاسلام المستشرقون : جويدى ، وأوليرى ، وفلهوزن ، والأب لامانس ، ومرجوليوت ، وديلافيدا ، ومورتيز ، وجروهمان ، وديسو ، ونولدكه . ومن الذين كتبوا فى سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام : درمنجيم ، وارفنج^(٢) ، وهوير ، وبودلى . ومن مؤرخى الفتوحات الاسلامية : بيكر ، وبتلر ، ودى جويه ، وفلهوزن ، وكانار ، وكايتانى ، وجب ، ولوران ، وأمليينو . ومن المتخصصين فى تاريخ الدولة الأموية : فان فلوتن ، وبل ، ويىكر ، وجابريللى ، وبريه . ومن المستشرقين الذين اهتموا بالعصر العباسى : أمدروز ، وفريتاج ، وشوارتز ، وهوروفيتس ، وبالمر ، ولسترانج ، وفازيليف ، ونولدكه ، وبوفا ، وغيرهم^(٣) .

واهتم المستشرقون أيضا بدراسة أسس علم التاريخ الاسلامى ومناهجه ، ومن أوائل المستشرقين الذين بحثوا فى هذا الموضوع المستشرق الألمانى (فرناند وستنفلد) الذى نشر بحثه عن الكتابة التاريخية عند المسلمين سنة ١٨٨٢ م ، ثم تلاه (بروكلمان) فخصص للمؤلفات التاريخية صفحات كثيرة فى كتابه عن تاريخ الأدب العربى ، كما طبع الأستاذ (ديفيد مارجوليوت) سنة ١٩٣٢ م المحاضرات التى ألقاها فى جامعة كلكتا عن التاريخ العربى ، ونشر (السرهاملتون جب) مقالة عن التاريخ عند المسلمين فى الطبعة الرابعة عشرة

(١) من مقدمة للدكتور تمام حسن فى ترجمته لكتاب (الفكر العربى ومكانه فى التاريخ) ص ١٤

(٢) قمنا بترجمة كتاب ارفنج ونشرته دار المعارف فى طبعتين متواليتين .

(٣) عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ص ٢٠٩ - ٢١٠

من دائرة المعارف البريطانية وبحثا قيما عن تطور علم التاريخ عند المسلمين في ملحق دائرة المعارف الاسلامية ، الى جانب عدد كبير من البحوث عن المصادر التاريخية تناولها كثير من المستشرقين ، وخاصة في مقدمات بحوثهم عن بعض موضوعات أو فترات التاريخ الاسلامى . ومن هذه الأبحاث ما كتبه (بارتولد) في مقدمة كتابه عن (تركستان حتى فتح المغول) ، وبحث (كلود كاهين) في مقدمة كتابه عن (سورية في فترة الصليبيين) . ومن أبرز دراسات المستشرقين في علم التاريخ الاسلامى ، كتابان للمستشرق (فرانز روز نثال) ، وهما (مناهج البحث العلمى عند المسلمين) وكتاب (علم التاريخ عند المسلمين)^(١) .

وفي الختام نقول أننا لا نستطيع أن نجهد جهود المستشرقين ، ولا يمكن لنا أن ننكر فضلهم ، ولا يجوز لنا أيضا أن نتغنى عن دراساتهم في أبحاثنا العربية ، حتى نستفيد من هذه الجهود وحتى نطلع على وجهات النظر الغربية في موضوعات تاريخنا العربى الاسلامى . وخاصة بعد أن أصبح القارىء العربى على جانب كبير من الوعى الفكرى والنضوج العلمى ، مما يجعله قادرا على تقييم أبحاث المستشرقين تقييما حقيقيا صادقا ، كما يمكنه من أن يميز بين الغث والسمين ، وبين وجوه الانصاف والاحجاف . وقد أصبح القارىء العربى المعاصر يستطيع أن يحكم على دراسات المستشرقين بفضل ما ظهر من أبحاث قدمها لنا علماء وأساتذة عرب متخصصون ، مما أوجد مجالا فسيحا لعقد دراسات مقارنة بين اتجاهات المستشرقين وآراء المفكرين العرب للوصول الى الحقائق التاريخية .

(١) انظر مقدمة كتاب (روزنثال) للدكتور صالح العلى ص هـ - و .